البحث البلاغي المعاصر في العراق
((معالم التجديد وصلتها بعبد القاهر الجرجاني))

أ. م. د. عبد الحسن علي مهلهل

كلية الآداب / جامعة ذي قار

مدخل :

اعجب الناس في القرن السابع الهجري والقرون اللاحقة بكتاب :((مفتاح العلوم لابي يعقوب السكاكي (ت٦٢٦هـ) فالفوا حوله الشروح والتلخيصات)) ووضعوا عليه الحواشي والتقريرات ،مما جعل البحث البلاغي – آنذاك – يتجه اتجاهاً خاصاً يقوم على الشرح والتلخيص(١) .

ومنذ ذلك حين كان لبعض المؤلفات البلاغية كالتلخيص والايضاح للخطيب القزويني ، والمصباح لبدر الدين بن مالك اثر واضح في توجيه الدرس البلاغي في المشرق والمغرب على حد سواء ، فقد انصرف الناس الى هذه المؤلفات شرحاً او تلخيصاً او دراسة فبانت المواهب الادبية ، وغابت الملكات، وظلت البلاغة العربية على هذه الحال حتى اطل فجر النهضة الحديثة فاحس الدارسون بضرورة ان تغير طرائق تدريس البلاغة العربية ،وان تجدد مناهج البحث والتأليف فيها فاستعانوا بالتراث البلاغي القديم يبحثون فيه عن الجدة والطرافة(٢) ،فظهرت معالم جديدة في الدرس البلاغي في العصر الحديث تدل على جهود الباحثين في هذا المضمار .

بعض هذه الجهود يتمنى ان توحد علوم البلاغة العربية الثلاثة في علم واحد يطلق عليه اسم (علم البيان) ، وبعضها الاخر يرجو توحيد المصطلحات البلاغية تحت اسم (الحقيقة او المجاز) ثم يصلها بالناحية المعنوية للنص الادبي عن طريق النظر الى القيم النفسية والاجتماعية والحضارية للبلاغة العربية واثرها الجمالي والذوقي الذي تتاركه في نفس القارئ ، في حين دعا اخرون الى اعادة النظر بالدرس البلاغي وفقاً لمفهوم (الصورة او الاسلوب) او (النقد والادب) دون اغفال كل تشكيل بلاغي ،ومعنى ذلك ان هؤلاء نظروا الى البلاغة نظرة شمولية متكاملة جمالية ونفسية واجتماعية وحضارية(٣) .

ومن الواضح ان معالم الدرس البلاغي في العصر الحديث يمكن ان تكون باتجاهين هما:

الاتجاه الاول : ظهور مؤلفات خاصة تنادي بتجديد الدرس البلاغي تحمل هذه المؤلفات آراء اصحابها مثل (فن العقول) و(مناهج تجديد) لامين الخولي و(الاسلوب) لاحمد الشايب ، و(مقدمة لدرس لغة العرب) لعبد الله العلايلي .

الاتجاه الثاني : ظهور مؤلفات حول بعض موضوعات البلاغة العربية ، دعا اصحابها الى تجديد هذه الموضوعات مثل (النقد المنهجي عند العرب) للدكتور محمد مندور، و(البلاغة تطور وتاريخ) للدكتور شوقي ضيف، و(الصبغ البديعي في اللغة العربية) للدكتور احمد موسى، و(البيان العربي) للدكتور بدوي طبانة وغير ذلك(٤).

ويبرز بوضوح بين هذين الاتجاهين ثلاثة مظاهر في العصر الحديث شكلت معالم جديدة للدرس البلاغي ، وهي :

المظهر الاول : ويمثله الشيخ امين الخولي الذي كان له اثر كبير في تجديد مسار جديد للدرس البلاغي في مطلع القرن الماضي ،وذلك من خلال البحث على اسس جديدة على نحو ما جاء في كتابه (فن القول) اشرنا اليه قبل قليل الذي يعدّ من المؤلفات الحديثة التي رسمت مناهج جديدة للبحث في البلاغة العربية، وكذلك فيما دعا اليه :(البلاغة وعلم النفس) و(البلاغة العربية واثر الفلسفة فيها) ،ومقالاته المنشورة في دارة المعارف الاسلامية ،ثم في كتابه (مناهج تجديد) الذي جمع فيه تلك المقالات والاتجاهات ونشره عام ١٩٦١ .

المظهر الثاني : ويمثله الاستاذ عبد الله العلايلي الذي يرى اهمية الغاء معظم ما ورثناه من مباحث البلاغة القديمة، والابقاء على مباحث: التشبيه ،والكناية، والحقيقة ،والمجاز من مباحث علم البيان، اما مباحث علم المعاني فيجب ان تهذب على نحو ما درس منها عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الاعجاز)، او على نحو ما درسه الزمخشري في تفسيره (الكشاف)(٥) .

المظهر الثالث: ويمثله الاستاذ احمد الشايب الذي درس البلاغة العربية دراسة جديدة تقوم في جوهرها على ما اسماه هو بـ(الاسلوب) و (الفنون الادبية) .

ولا يجب ان ننسى اسماء اخرى في هذا المضمار من امثال :الشيخ محمد عبدة ، ومصطفى صادق الرافعي ،وعلي الجارم،ومصطفى امين ،ومحمد رجب البيومي، ولكل من هؤلاء الباحثين اتجاهه الخاص في دراسة البلاغة العربية في العصر الحديث(٦).

ولعل من ابرز دراسة – على حد علمي– ظهرت في العصر الحديث وضمت هذه الجهود وغيرها هي دراسة الدكتور وليد عبد الله الخفاجي(٧)، ولكنها لم تشر الى معالم الدرس البلاغي في

جهود الباحثين العراقيين المحدثين والمعاصرين عدا جهود الدكتور احمد مطلوب ،وخلاصة ما ذهب اليه هذا الباحث ان هناك ثلاثة تيارات جديدة وسمت الدرس البلاغي في هذا العصر وهي[٨]:

الأول : تيار اصلاحي يدعو الى تيسير الدرس البلاغي ،ورفع الجمود الذي لحقه بسبب جفاف القواعد،ويمثل هذ التيار محمد عبده ،وعبد المتعال الصعيدي .

الثاني : تيار تقليدي يدعو الى المحافظة على الموروث البلاغي من غير اجراء اي تغيير عليه .

الثالث: تيار احيائي . يرى اهمية بناء الدرس البلاغي الحديث على اسس جديدة من (فن القول) او (الاسلوب)، ويمثل هذا التيار الشيخ امين الخولي ،واحمد الشايب ،وعبد الله العلايلي .

ويمكن ان نضيف الى هذه التيارات تياراً جديداً اخر سعى اصحابه الى الربط بين البلاغة العربية وبين الاجناس الاعلامية التي شاعت في العصر الحديث، ويتزعم هذا المنهج الجديد باحثان هما الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، والدكتور عبد العزيز شرف الدين ، ويسعى هذا المنهج الى افتراض اصول مشتركة لمعظم اللغات الانسانية التي يتوسل بها الناس في الابانه عن انفسهم او الاتصال بغيرهم ،كما يتصور ان هناك سلالات لغوية قد انحدرت عن اصول يمكن ان يطلق عليها مصطلح :((اللغة الام)) ، ووفقاً لذلك يفترض الباحثان وجود هذه ((اللغة الام)) لتكون اصلاً لجميع الفنون الانسانية[٩] .

ويعتقد هذان الباحثان ان العرب القدماء قد سبقوا غيره في وضع اسس علم الاتصال اللغوي الذي اكتشف حديثاً من قبل الغربيين ،ويستدلان على ذلك بما جاء عند صاحب كتاب البرهان في وجوه البيان الذي جعل ((البيان على اربعة اوجه :فمنه بيان الاشياء بذواتها ،وان لم تبن بلغاتها ،ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند اعمال الفكر واللب ، ومنه البيان وباللسان ، ومنه البيان بالكتاب ،وهو الذي يبلغ من بعد وغاب))[١٠].

هذه هي ابرز المناهج الجديدة التي سعت الى اصلاح ما افسده القدماء في الدرس البلاغي عند العرب .

معالم جديدة :

ليس من الانصاف ان يغفل الباحث – عن مناهج جديدة في الدرس البلاغي – جهود الباحثين العراقيين المحدثين والمعاصرين ممن سعوا الى رسم معالم جديدة لمسيرة البلاغة العربية في العصر الحديث، وذلك فيما قدموه من مؤلفات او كتبوه من ابحاث ومقالات يمكن ان تكون سبيلاً لرفع الجمود او ازالة الضيق الذي يلف البحث البلاغي مما يفتح الباب واسعاً امام الدارسين الذين اصابوا الذعر فنأو بانفسهم عنه خشية الوقوع في حبال الفشل .. وهؤلاء الباحثون هم:

١. جميل سعيد[*] :

يعد الدكتور جميل سعيد في طليعة الباحثين العراقين الذين تصدوا لتحمل الدرس البلاغي في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين وذلك من خلال محاضراته التي ألقاها على طلبة اللغة العربية في دار المعلمين العالية في بغداد ،او التي ألقاها بعد على طلبة جامعة بغداد ،وقد اسفر كل ذلك عن كتابه ((دروس في البلاغة وتطورها)).

يعد هذا الكتاب خطوة جديدة نحو النهوض بالدرس البلاغي في العصر الحديث ،ويتألف من قسمين: الاول في تاريخ البلاغة العربية ونشأتها، والثاني في فصاحة الكلام وما يتبعه من موضوعات اخرى .

يفضل جميل سعيد شواهد اعلام المدرسة الادبية وامثلتها التي وردت في مؤلفات القدماء كأبي هلال العسكري ، وعبد القاهر الجرجاني ،وابن سينا الخفاجي ، وهو بذلك يريد ان يعقد الصلة بين المتعلمين وبين سلوب هؤلاء الادباء لتنمية المواهب الادبية ، وايقاظ مواطن الجمال في النصوص الادبية[١١].

يرى الدكتور جميل سعيد ان الدرس البلاغي يمكن تهذيبه وتنقيته من كثير من الموضوعات ولاسيما تلك التي لا تقدم ولا تنمي الذوق او الموهبة ،ما دامت البلاغة وسيلة من وسائل صقل الحس الادبي، ويعتقد ان البديل المناسب لذلك هو الاهتمام بالالفاظ العربية (المفردة او المركبة) وفصاحتها ، وذلك بكشف الاصول التي اعتمدها القدماء في المفاضلة بين هذه الالفاظ ، ومانتج عنها لديهم من قيم ذوقية تسهم في تباين الاحكام الى رفاهة الحس ،وانفعال الانسان بالكلمة المعبرة ، واتخذت من حاسة السمع وسيلة للمفاضلة بين لفظين يختلفان في صورتهما اللفظية، ويتفقان في معناهما))[١٣].

وفي ظني ان مثل هذه الافكار قد اوحت للدكتور ماهر مهدي هلال[**] لدراسة التأثير الحسي للالفاظ وما تؤديه من دلالات معنوية في ذهن السامع، ولاسيما عند تنظيم هذه الالفاظ مع بعضها البعض في النص الادبي ،الذي يشبه الى حد بعيد ما تتركه الالحان الموسيقية في نفس السامع . فقد تتبع ما تفرق من بحوث القدماء حول الالفاظ، واثرها في الفصاحة والبلاغة ، ثم ما يتعلق باحتكامهم الى حاسة السمع في بيان قيمة هذه الالفاظ ، وبيان صفاتها تبعاً لما تتركه من نفور او اقبال في نفس السامع وما ينتج عن كل ذلك من احكام نقدية يخضع لها النص الادبي .

ومن غير شك ان هذا الموضوع جدير بمثل هذا البحث ، اذ لم يرد عنه سوى اشارات موجزة عند بعض الباحثين المحدثين من امثال الدكتور تمام حسان[١٤] ،الذي اشار الى اهمية جرس الالفاظ وما ينتج عن السمع من ذبذبات تشبه النقر على الخشب، والدكتور ابراهيم انيس[١٥] وذلك فيما

يسميه بالانغام الموسيقية التي هي ميل غريزي عند الانسان ،ناتجة عن توالي وانسجام المقاطع الصوتية .

٢. احمد مطلوب(***) :

قدم الكتور احمد مطلوب منهجه في تجديد البلاغة العربية اول مرة في مقالته :(آراء في البلاغة العربية)(١٦)، ثم مقالته :(اتجاهات البلاغة العربية)(١٧) ،ثم توسع – بعد ذلك – في مؤلفاته الاخرى مثل (مناهج البلاغة)(١٨)، (دراسات بلاغية ونقدية)(١٩). ومن معالم منهجه في تجديد الدرس البلاغي(٢٠) :

١. الغاء التقسيم الثلاثي للبلاغة العربية . وعدها فناً بلاغياً واحداً ،وان يضم الى دراستها البحث في الكلمة، وما فيها من جرس موسيقي وما يتركه من اثر في التعبير ، وان يكون البحث في الفصاحة من صميم الدراسات البلاغية ،ثم البحث في اجزاء الجملة وما يحدث فيها من فصل ووصل ، وحذف وذكر ، وتقديم وتأخير .

٢. تقليل المصطلحات البلاغية . والاكتفاء باهمها وادلها على الاساليب العربية، فالمجاز مثلاً لاحاجة الى تقسيمه الى نواع كثيرة، وانما يكتفي بتقسميه الى لغوي وعقلي كما فعل الجرجاني، او تعده كله لغوياً كما فعل السكاكي، ويجب ان نكتفي بمصطلحات قليلة في الاستعارة ولاسيما كالتصريحية والمكنية .

٣. البحث في صور التعبير المختلفة كالتشبيه والاستعارة والكناية والتوريه وغيرها من مباحث علم البيان والبديع التي لها قيمة في قيم التعبير واداء المعاني .

٤. تجاوز القواعد البلاغية المأثورة عن القدماء ، والاهتمام بالناحية الادبية للبلاغة ،وتخير الامثلة من القرآن الكريم،وكلام العرب ،وتحليلها تحليلاً يساعد على تنمية الذوق الفني عند المتعلمين .

ولم تقف معامل التجديد لدى الدكتور احمد مطلوب عند هذا الحد ، بل تجاوزتها الى معالم اخرى وهي :

١. تخلية البلاغة من بعض البحوث التي تفتقر الى الفائدة، ومن ذلك الحديث عن (الملكة) والاغراق في تفسيرها ،والحديث عن الصدق والكذب في الخبر والانشاء وادخال الفلسفة الالهية في مباحث الدلالات واقسامها ،كدلالة المطابقة او الدلالية الوضعية ،ودلالة التضمين والالتزام ، وهما دلالتان عقليتان قد اسرف شراح التلخيص في بحثها(٢١).

٢. تخلية البلاغة مما اقتحم فيها من الموضوعات التي لا فائدة منها ،كالنزعة الفلسفية الجدلية التي تسيطر على بلاغة المتأخرين كالقزويني ،والدراسات النحوية التي تظهر باجلى صورها في مباحث (علم البيان) ولاسيما في تقدير الفاعل او المفعول ،او البحث في استخدام ادوات الشرط،

واحوال التعريف ،وتقسيم الفعل او البحث في ادوات الاستفهام ،والتمني والنداء والامر والنهي، والبحث في واو الحال ،وغير ذلك ، ويجب اعادة هذه المباحث الى علم النحو وضمنها الى فصوله(٢٢).

ويبدو واضحاً ان الدكتور احمد مطلوب يسعى من وراء ذلك الى امرين:-

الاول : تلخيص البلاغة من كل غريب ليست له صلة بالفن الادبي ،ومما اقحم عليها اقحاماً فافقدها قيمتها وضيع الغرض الذي من اجله درسها القدماء .

الثاني: تلخيصها من الاضطراب المنهجي والانتقال من اسلوب الى اخر، ولاسيما اساليب الفلاسفة واهل المنطق عندما يناقشون او اساليب الفقهاء عندما يحللون ،او اساليب النحاة عندما يعرضون لموضوعاتهم ويفصلون القول فيها .

٣. تخليصها من الفوضى والاضطراب الذي اصابها من كثرة التفريغ في فنونها، على نحو ما نرى في فنون علم (البديع) التي وصلت الى اكثر من (مائة) فن بلاغي ،والابتعاد عن تسمية الفن البلاغي الواحد باكثر من اسم مثل تسمية(التجنيس) بـ: الجناس والمجانسة، او تسمية (التورية) بـ (الايهام) و (التوجيه) و (التخيير) او تسمية التشبيه (المقلوب) بغلبة الفروع على الاصول او الطرود والعكس وغير ذلك(٢٣) .

ويعد القزويني من البلاغيين القدماء الذين حظوا باعجاب الدكتور احمد مطلوب ،ولاسيما فيما يتعلق بتوحيد وتسمية المصطلحات في كتابه (الايضاح) حيث يقول ((ونحن في بلاغتنا الجديدة لايمكن ان نبقى مضطربين في هذه المصطلحات ،وانما ينبغي ان ننسقها ،ونوحدها ونضم بعضها الى بعض ، ونستعمل منها ما هو اكثر دلالة على الفن البلاغي الذي نبحث فيه ،ونرى ان نستفيد مما ذكره القزويني لانه جمع زبدتها في كتابه ،وكان موفقاً الى حد كبير في بحث البديع فادخل بعض فنونه في بعض، وبذلك قلل مصطلحاته وانواعه التي اسرف المتأخرون في تفريغها))(٢٤) .

ويدعو الى الافادة مما كتبه القزويني في مقدمته في (الفصاحة) وهي ليست مقدمة لدراسة البلاغة ،كما زعم وانما هي من صميم الدراسات النقدية، وكذلك الافادة من بحوثه في : الايجاز والاطناب والمساواة ،فقد جمع فيها ((جودة التقسيم مع روعة التحليل، ولم يضطرب كما اضطرب المتأخرون فجعلوا بعض اقسامه كالتكميل والتتميم والايغال)) (٢٥) .

ويرى ان لا نهمل من بلاغة القزويني ، وبحوثه في :التشبيه والاستعارة والكناية والبديع ، فهي بحوث جيدة تشهد له بسعة الاطلاع ، لكننا يجب ان لا نأخذ تقسيماته الكثيرة ،والابتعاد عن تعليلاته ،وتشبيهاته الغريبة التي اكثر منها ابن المعتز واضرابه من الشعراء المترفين(٢٦) .

ولن تكون البلاغة صالحة في – رأيه – ما لم نجمع بينها وبين الدراسات الحديثة ولاسيما في مجال علم النفس التي اهتم بها النقاد المحدثون(٢٧) .

هذه هي اهم معالم الدرس البلاغي الجديد كما يراه الدكتور احمد مطلوب ، اذ يمكن من خلالها ان ((تبعث البلاغة العربية الروح من جديد لتكون صالحة لنقد الادب وتكون ملائمة للفن الادبي المتطور)) (٢٨) .

ولعلها معالم تدل على (منهج متوازن يسعى الى التجديد بخطوات واثقة وبلا صخب او عجالة هادئة دون ابطاء او رتابة، وهو لولا ان تقدمه منهج الخولي – المنهج الجدير بالقبول)) (٢٩) .

ولا يعدم الباحث اثر لما دعا اليه الشيخ امين الخولي في منهج الدكتور احمد آنف الذكر ، فالشيخ الخولي(٣٠) كان قد دعا الى اقامة الدرس البلاغي على اسس جديدة من (فن القول)، وذلك بان يضم البحث فيها ثلاثة ابواب هي: المبادئ والمقدمات والابحاث ، ففي المبادئ ندرس تعريف (فن القول)، وغايته وصلته بغيره من الدراسات الاخرى الحديثة لاسيما النقدية ،وندس في المقدمات جانباً من اسس علم النفس الحديث ،ولاسيما في مجال فهم الادب وتذوقه ،والاحساس بالجمل في النص الادبي ،واما الابحاث فتضم دراسة البحث في الكلمة الواحدة من حيث هي عنصر لغوي ، وما فيها من جمال ،وجرس موسيقي له اثر فغي التعبير ،وتضم ايضاً البحث في الجملة وما يحدث فيها من تقديم وتأخير ،وحذف وذكر ، وايجاز واطناب ،وكذلك البحث في الفقرة وما فيها من فصل ووصل ،والبحث ايضاً في صور التعبير كالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز .

ولا يخفى صدى ما نادى به الدكتور عبد الستار الجواري فيما ذهب اليه احمد مطلوب قبل قليل في الحاق علم المعاني بالنحو ، لانه اقرب منه الى البلاغة ،لان النحو لا يستقيم الا وجود هذا العلم ،وقواعده لا تستقر الا عليه(٣١) .

وخلاصة القول ان معالم منهج الدكتور احمد مطلوب قائمة على اسس صلبة ،لم تأت الا بعد خبرة طويلة ومعاناة واضحة من جراء تدريس علوم البلاغة ، وملازمة قوية لاصول الدرس ،وفهم حقيقي لاهدافه التي تتجلى في تنمية حاسة الذوق لدى الدارسين والمتعلمين ،وتربية ملكة النقد ، وتمييز الجيد من الاساليب عن الرديء منها ،وصوغها على الوجه المناسب .

٣. محمد حسين الصغير(****) :

لا يبتعد الدكتور الصغير عما ذهب اليه الباحثون المعاصرون الذين دعوا صراحة الى تجديد البلاغة العربية ، فقد تلا بعضاً من آرائهم ،ووسع البعض الاخر وذلك في بعض مؤلفاته البلاغية مثل ((اصول البيان العربي)) و ((علم المعاني بين الاصل النحوي والموروث البلاغي)) .

ومنهجه في رسم معالم جديدة للدرس البلاغي يقوم على مسألة مهمة هي التفريق بين علوم البلاغة الثلاثة ،وفصل كل علم عن الاخر ، اذ يقول ((ان علم المعاني قسيم لعلم البيان عند البلاغيين العرب القدامى ،وهما ركنان اساسيان في الهرم الثلاثي لقواعد البلاغة بالمفهوم التقليدي ،ولقد لمسنا في هذا التقسيم تجوزاً فضفاضاً لا يلائم طبيعة المباحث البلاغية ،وان المنهج الموضوعي يقتضي الفصل بين هذه العلوم الثلاثة وان تداخلت بعض المفاهيم فيها لسبب من الاسباب او التقت في بعض المقاييس في جملة منها بوجه من الوجوه))(٣٢) .

ولذلك نراه يضع (علم البيان) في اطار (علم البلاغة) في حين يضع (علم المعاني) في اطار(علم النحو) فيقول :((لا ريب ان مباحث المسند والمسند اليه، والفصل والوصل ،والتقديم والتأخير ،والحذف والذكر ،وامثالها ،وان كانت لاتخلو من لمحات بلاغية ،وسمات بيانية بالمعنى العام،الا انها مباحث نحوية، وان المجاز والتشبيه، والتمثيل والاستعارة ،والكناية والتعريض والرمز ، وان كانت لا تخلو من دقائق نحوية الا انها مباحث بلاغية))(٣٣) .

والدكتور الصغير متأثر هو الاخر صراحة برأي استاذه المرحوم الدكتور عبد الستار الجواري الذي مر بنا قبل قليل ..

ولعل من اهم ما يتسم به منهج الدكتور الصغير في رؤيته للدرس البلاغي الجديد يقوم على مبدأ الغاء التقسيم والتمايز بين مصطلحي (البلاغة والفصاحة) وذلك من اجل مسح متوازن لعناصر البيان العربي بجملته ومفرداته ، فهي بليغة وهي فصيحة في آن واحد بوصف البلاغة فناً يوصف به الكلام والمتكلم دون الكلمة المفردة ،وكون الفصاحة فناً يوصف به الكلام والمتكلم والكلمة(٣٤) .

وهذا رأي سبق ان اشار اليه ابو هلال العسكري بقوله:((الفصاحة والبلاغة ترجعان الى معنى واحد ،وان اختلف اصلاهما ،لان كل واحد منهما، انما هو الابانة عن المعنى والاظهار له))(٣٥) .

ويفضل البحث عن بلاغة النص الادبي دون الخوض بتفصيلات احوال الجملة العربية كالاسناد والاسناد الخبري والتقديم والتأخير والتعريف والذكر ، وكل ما يتعلق بشؤون ما تعارفوا عليه بعلم المعاني الذي تكفل بالكشف عن ابعاده علم النحو العربي(٣٦) .

ومعلوم ان (علم المعاني)كان مثار اهتمام القدماء لاسيما السكاكي والقزويني ،ولكن السكاكي لم يكن موفقاً بتقسيم مباحثه الواردة في كتابه: (مفتاح العلوم) لبناء تلك المباحث بناء منطقياً فحصر به موضوعاته حصراً، ومزقها تمزيقاً ،افقدها كل روح ،وباعد بينها وبين كل ما يتطلبه الفن الادبي(٣٧) .

اما القزويني فقد حصر علم المعاني في ثمانية ابواب هي :احوال الاسناد الخبري ،واحوال المسند اليه ،والمسند ، واحوال متعلقات الفعل ، والعقد والانشاء ،والفصل والوصل ،والايجاز والاطناب والمساواة(٣٨) .

ومن اجل ذلك قدم الصغير صياغة جديدة لمباحث علم المعاني هي(٣٩):

١. الجملة العربية ويبحث فيها قضايا التركيب الجملي في الاسناد وقضاياه العامة.
٢. الخبر والانشاء : ويضم فيها انواع الخبر واساليب الانشاء من غير تفريط او افراط .
٣. التعريف والتنكير : ويشمل بحث مواطن في الفن القولي .
٤. التقديم والتأخير : ويضم البحث في مزيتها العامة بعيداً عن التفصيلات.
٥. الذكر والحذف : ويشمل الاهتمام ببيان مواردها وفوائدها .
٦. القصر والحصر بادواتهما وملامحهما البلاغية .
٧. الفصل والوصل .
٨. الايجاز والاطناب والمساواة .

وغايته في ذلك المنهج ان يتجنب التفرغات والتعقيدات في البلاغة التي اصبحت كالطلاسم المبهمة، حيث يقول : ((فالمباحث هذه – فيما يبدو لي – اعني الفصل والوصل والايجاز والاطناب والمساوة ينبغي ان تقتطع من مباحث معاني النحو لتضاف الى مباحث البيان في منهج البلاغة العربية ،لقربها منها ولصوغها بها ،والمباحث المتقدمة اعني : قضايا الاسناد بابوابها الثلاثة : احوال الاسناد الخبري ،واصول المسند اليه ،واحوال المسند ،واحوال متعلقات الفعل ، والقصر والانشاء ينبغي ان توصل بعلم النحو ،فهو معاني النحو لاشك في ذلك)) (٤٠).

٤. جليل رشيد فالح(*****) .

رؤيته لم تكن شاملة لعلوم البلاغة العربية ، بل كانت جزئية تتعلق باصلاح علم البديع.

يقول الدكتور جليل رشيد في تعريف (فن البديع) :((هو ذلك الفن الذي يحقق في الاثر ايقاعاً موسيقياً بانسجام الفاظه، وتلاؤم عباراته ، ورسم صورة مؤثرة في النفس فيها طرافة وجدة غير متجاوز شرائط الفصاحة العربية)) (٤١) .

وانطلاقاً من هذا التعريف فقد قسم فنون البديع الى ثلاثة اقسام هي :

أولاً. الفنون الايقاعية : وهي الفنون التي تمتلك قدراً وافياً من الخصائص الصوتية المتمثلة في تلاؤم الحروف ،وتوزان العبارات على مقتضى الطبع والبداهة، كالجناس والطباق والترديد، والسجع ،

والتوشيع ،والتشطير، والمشاكلة، والجمع مع التقسيم ،والجمع مع التفريق، والمماثلة ، وحسن النسق، والترصيع ،والتمسيط ، ورد الاعجاز على الصدور(٤٢) .

ويرى ان (فن الجناس) هو مثال على تحقق تلك الالوان الايقاعية وان كانت لا تحقق الا في النصوص الادبية ذات التجربة الشعورية الصادقة ، كقول ابي تمام مثلاً :

يمدون من أيدٍ عواص عواصم تطول باسياف قواض قواضب

وكذلك قوله :

ارامة كنتِ مألفَ كلِّ ريمٍ لو استمعت بالانس المقيم

وقوله :

متى انتَ عن ذهلية الحيِّ ذا هل ؟ وقلبُك منها مَدة الدهرِ اهلْ

ففي هذه الابيات ترى المناسبة الصوتية جمعت بين (عواص) و(عواصم) و(قواض) و(قواضب) و(رامة) و(الريم) و (ذهلية) و (ذا هل).

فالايدي في ساحة الوغى تعصي اعداءها ،ولا تذعن لهم ،وتعصم من استجار بها ،وهي تقضي على الاعداء حين تسّل لهم القواضب القاطعة . وانكر الشاعر ان يكون للمرء ذهول وشرود عن ذهلية الحي ، وربما كان لهذا الحي مقام في نفسه لا ينبغي ان يذهل عنه(٤٣).

وفكرة جمع الفنون البديعية المتشابهة تحت باب واحد هي ليست فكرة جديدة ، فقد اشار اليها ادور مرقص الذي حاول معالجة مشكلة التداخل بين علوم البلاغة العربية الثلاثة في مقالته : (((نظرة في قواعد اللغة العربية وآدابها)) (٤٤) .

وهذه الالوان هي : الموافقة والمخالفة والترتيب والمبالغة والاستدراج والتلميح وحسن التعليم والايهام والتدقيق والتوليد والكلام الجامع ، ولكنه اعاد النظر فوجد فيه اطالة ،فاراد الايجاز في تلك التقسيمات ليجعل اركان البديع ثلاثة هي : الموافقة والمخالفة وحسن الترتيب .

وكذلك اشار انيس المقدسي(٤٥) الى الفكرة السابقة نفسها ،حيث يرى ان تجمع الالوان البديعية المتشابهة في المعنى او في العمل الفني تحت باب واحد، وهذه الابواب هي :

١. باب التعادل والازدواج : ويضم الفنون التي تتماثل في الوزن والتركيب .
٢. باب التوطؤ اللفظي : ويضم الفنون ذات الحس الموسيقي الواحد .
٣. باب التواطؤ المعنوي : ويضم الفنون ذات المعاني المتشابهة .
٤. باب المغايرة : ويجمع المتضادات .

ثانياً. الفنون التصويرية . ويضم الفنون التي تعرض الافكار والمعاني في صورة فنية ، وهي : التورية والاستطراد والاسلوب الحكيم، والمذهب الكلامي ، والتلميح والمدح في معرض الذم ، والذم في معرض المدح ، والتقسيم والمبالغة[٤٦].

ثالثاً. الفنون الطريفة . وهي التي يغلب عليها المماحكة اللفظية اي المداعبة والظرف ، ويراد بها غالباً اسجاء الفراغ في اوقات السمر، وهي: فن القلب، وهو فن قريب من الالغاز وفن التخيير ، والسطي والنشر والتعريض .

ولعل الدكتور جليل رشيد فالح قد افاد في ما طرحه من منهج جديد لدراسة فنون البديع ، مما قدمه امين الخولي[٤٧] الذي جعل فنون البديع ثلاثة اقسام منها ما يزيد المعنى حسناً وجمالاً كالجناس والسجع والترصيع والتصريح ، ومنها ما يكون في صورة الايضاح كالتجريد والقلب والاسلوب الحكيم والمبالغة وتأكيد المدح بما يشبه الذم ،ومنها ما يكون في صور التعبير والمضللة كالرمز والايحاء والالغاز والتورية .

٥. مجيد عبد الحميد ناجي :

باحث عراقي سعى الى تفسير جانب من اساليب وفنون البلاغة العربية في ضوء معطيات علم النفس الحديث وذلك في دراسته ((الاسس النفسية لاساليب البلاغة العربية)) [٤٨] .

يرى ان فنون البلاغة يجب ان تنقسم الى:

١. اساليب التعبير المباشر وهي :(ما يطرأ على الجملة العربية من: تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير وايجاز) .

٢. اساليب التعبير غير المباشر وهي فنون :(التشبيه ، والتمثيل، والاستعارة ، والمجاز، والكناية).

ويستعرض الشواهد والامثلة التي جاءت عند القدماء من البلاغيين والنقاد ليستدل بها علىصحة ما ذهب اليه فيرى انه من الممكن ربطها بظواهر علم النفس الحديثة فعلى سبيل المثال ، ثم يرى ان (المبدع) قد يلجأ الى استخدام اسلوب (التقديم والتأخير) فيرتب الالفاظ على غير ما يقتضيه وجودها الذهني لتحقيق ابعاد نفسية معينة تنبع من طبيعة التجربة الشعورية ،والمعنى المراد نقله ، والانتقال المناسب ،الذي يراد احداثه في نفس المتلقي ،ومن ظروف واحوال المقام الذي سبق فيه التخاطب[٤٩] .

ويستدل على ذلك بقول الشاعر :

ثلاثةُ تُشرق الدُنيا ببهجتها　　شمسُ الضحى وابو اسحاق والقمرُ

ويعلق على هذا البيت قائلاً:((ان نفس المتلقي متطلعة الى معرفة من هؤلاء الثلاثة ،حتى اذا استحكم ذلك منها ،ذكرهم لها فكان هذا قد ادى تقبلها وتوكيد المعنى لديها ،واستحداث الاستجابة المناسبة فيها ، لانشغالها تفقد موضوع المبالغة غير المقبولة لما اثارته هذه الالفاظ من انفعال التشويق والتطلع))(٥٠) .

وقد يلجأ المتكلم الى تعريف المسند ولاسباب نفسية وذلك خروجاً عما هو مألوف ، وهذه الاسباب هي : المبالبغة في ادعاء بثبوت الحكم ،والاهتمام، والتهويل والتعظيم(٥١) .

اما (الايجاز) فقد فسره في ضوء مظاهر علم النفس عن طريقة مجموعة من الابعاد التي يرمي اليها (المتكلم) مثل(٥٢) :

١. المحافظة على نشاط النفس ودفع السأم عنها ،وعندئذ يكون النص الادبي اكثر قابلية على الاثارة والتأثير .

٢. التوسع في الدلالة الايحائية عن طريق فتح باب التخيل امام المتلقي .

٣. لفت انتباه المتلقي للحدث دون سواه .

اما فيما يتعلق باساليب التعبير غير المباشر (التشبيه والتمثيل والمجاز والاستعارة والكناية) التي ذكرها ،فقد فتش الدكتور مجيد عبد الحميد ناجي في مؤلفات القدماء ، وراح يربط بين شواهدهم وامثلتهم التي وردت فيها ، وبين معطيات علم النفس ثم اخذ يفسرها في ضوئها ،فعلى سبيل المثل ، يرى ان اداة التشبيه هي الرابطة بين (المشبه والمشبه به) ، وهي الحد الفاصل بينهما،كما هي المركز النفسي والاساسي الذي يوحي بان المشبه هو غير المشبه به،مهما بلغت جهات الاشتراك بينهما وتعددت(٥٣) .

وفي ضوء ذلك يعلق على قول الشاعر :

كان شقائقَ النعمان فيه ثيابٌ قد رُوينَ من الدماءِ

((ان الدماء وان كانت حمراء تشبه شقائق النعمان ،فهي لا تلائم الجو النفسي البهيج الذي يعيشه الانسان ، وهو يتأمل روضة عناء ،لانها بما للمرء من خبرة سابقة عنها تنتقل بخاليه الى ساحات الموت التي تسفك فيها الدماء ، وتذكره بكل تجاربه المريرة ، فهي اذن علاقة عند ملائمة لهذه التجربة الشعورية، وهذا ما يؤدي الى عدم اثارة الانفعال المناسب)) (٥٤) .

ويرى الدكتور مجيد عبد الحميد ان التعريف والتلويح والرمز والاشارة والايماء والارداف كلها طرق للكناية وان اختلفت ،لانها كلها تشير الى المعنى البعيد عن طريق المعنى القريب الذي يدل عليه ظاهر اللفظ للعلاقة بينهما(٥٥) .

وهكذا يقدم الدكتور مجيد عبد الحميد منهجاً جديداً لقراءة فنون واساليب البلاغة العربية حتى تكون صالحة لتنمية الذوق الفني لدى الدارسين والمتعلمين .. لذا نكتفي بهذا القدر من الامثلة وبامكان القارئ الكريم الاطلاع على المزيد منها في هذه الدراسة ..

٦. ماهر مهدي هلال(******) :

للدكتور ماهر رؤية جديدة لدراسة البلاغة العربية في العصر الحديث ، هي رؤية تقوم في جوهرها على ايجاد مقاربة موضوعية بين حداثة الاسلوبية واصالة البلاغة العربية او عراقتها المعرفية ، حيث يقول ((يمكن ايجاد مقاربة موضوعية بين حداثة الاسلوبية وزمنية البلاغة وعراقتها المعرفية ، من خلال جسور الارتكاز التي يقيمها الاسلوبيون على اساس ان البلاغة اسلوبية القدماء)) (٥٦) .

والدكتور ماهر يسعى الى توحيد المسار المنهجي للدراسات الاسلوبية الحديثة مع البلاغة العربية ، رداً على من يتهم البلاغة العربية بعدم مواكبة الدراسات الحديثة ،وذلك عندما جعل البلاغة المهاد الموضوعي للدراسات الاسلوبية المعاصرة كونها ((فن الخطاب الجيد)) والجودة سمة جمالية ، تشكل الحقيقة اللسانية الوحيدة الواقعية لتكوين المعنى الذي يؤدي الى الكيفية الاسلوبية في الكلام الموصوفة بلاغياً بمطابقة الكلام لمقتضى الحال(٥٧) .

ويلتمس تلك الصفة اسباباً تكمن في ان (الاسلوبية) تبحث في اللغة ، واللغة هي مادة الادب ، والادب ضرب من ضروب الابلاغ ، كما ان اللغة الشعرية عند الاسلوبيين انفسهم هي كلام بلاغي يسعى الى القيام بوظيفة جمالية، استعملت اللغة فيه استعمالاً خاصاً في مستوياتها الاربعة : المعجمي، والصوتي ،والتركيبي ، والدلالي(٥٨) .

والدكتور ماهر يدرك ان البلاغيين القدماء من امثال : الجاحظ ، الجرجاني ،وابن الاثير لم يلهموا واحداً من اهم مستويات اللغة وهي المستوى الصوتي الذي يشكل احد الاركان المهمة عند الاسلوبين ،فيرى – مثلاً – ان الجاحظ وضع بقوله ((واجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء سهل المخارج...)) اول مرتكز لساني في منهجية الدراسة البلاغية بجعل البنية الصوتية مدخلاً لدراسة النص وتحليله والاقرار بان العنصر الصوتي يحقق البلاغة والفصاحة على مستوى الابلاغ المفهوم وعلى مستوى الابلاغ الفني(٥٩) .

اما الجرجاني فهو الاخر الذي قيد سمة (الفصاحة) بالنظم على اساس ان الكلمة المفردة لا تكتسب سمتها معزولة ، ولا توصف من غير ان ينظر الى مكان تقع فيه من التأليف والنظم ، عندما قال :((...وهل تجد احداً يقول هذه اللفظة فصيحة)) ،واما فخر الدين الرازي فيعد من اوائل البلاغيين الذين ربطوا الدرس البلاغي بالدلالات وقسمها على قسمين : وضعية وعقلية ، وذلك في كتابه (نهاية

الايجاز) وسمى ابو حمزة العلوي في (الطراز) الدلالة الوضعية بـ (دلالة المطابقة) وقسم الدلالة العقلية على قسمين : دلالة التضمين ودلالة الالتزام .

ويرى ايضاً ان التصور البلاغي للدلالة مرجعه الى فكرة (النظم) عند عبد القاهر الجرجاني ومنظوره اللغوي في تقسيم المعاني(٦٠) .

ونظراً لاختلاف العناصر الصوتية من لغة الى اخرى فان الدكتور ماهر ينطلق من ذلك ليحدد اتساق الاسلوبية الصوتية في اللغة العربية في مستويين : الاول : في طبيعة العلاقة بين الصوت والمعنى في الحروف (الكلمات) والثاني : في المستوى الايقاعي في البنية الشعرية .

ويرى ان في هذين المستويين ما يندرج تحت ما وسمته الدراسات البلاغية بالمحسنات الفظية تعبيراً عن وظيفتها الجمالية ، كالجناس والتكرار ور العجز على الصدر والترصيع والتقسيم ، وعليه ((فان المستوى الصوتي (لديه) هو اول المنطلقات الاسلوبية التي تلتقي منهجياً بالوصف البلاغي لصوتية المفردات اللغوية واتساقها التعبيرية ،واقرار الاثر الصوتي في تكثيف العلاقة بين الدال والمدلول واحداث المتغيرات اللغوية لاداء المعنى)) (٦١) .

والبلاغة لديه هي علم نص الكلي لان بنية النص البلاغي تزاوج بين المقومات الحسية والعقلية لتبني تصوراً جديداً باقامة علاقات اسناية تذيب شيئية الجزيئات ودلالتها المباشرة لتحتويها كلية المدلول النصي(٦٢) .

وعلى ذلك يرى بعد ان يستقرئ امثلة القدماء وشواهدهم(٦٣) ان اسس النقد يجب ان تنحو منحنى جديداً يقوم على استقراء النص الادبي بمنظور المثال البلاغي ،وامكانياته البنائية على توليد انساق جديدة اللغة .

ويشير الى ما يسميه بدقة المنظور البلاغي في تأويل النص الشعري لدى القدماء من امثال الجرجاني والامدي والرازي ،فيستدل على اهمية ان يكون الناقد على وعي بالنص الشعري لا بالقاعدة البلاغية او المعيار لان النص سينتج معاييره التي تتأسس عليها فنون البلاغة ،كالاستعارة والتشبيه والكناية.

وكل ذلك من اجل ان يطور الناقد منظوره البلاغي في تحليل النصوص الادبية ليصل بعد ذلك الى بيان امر المعاني ،كيف تتفق او تختلف ؟ ، واول ما يجب ان يستوفيه في ذلك المنظور ، واحقه هو القول على فغنون البيان كالتشبيه والتمثيل والاستعارة ، كونها اصولاً لاترجع اليها جل محاسن الكلام(٦٤) .

. وخلاصة القول ان الدكتور ماهر يسعى فيما قدم من ابحاث الى طرح مفهوم جديد لدراسة البلاغة العربية او البحث فيها يتجسد في :

١. ايجاد مقارنة موضوعية بين حداثة الاسلوبية واصالة البلاغة العربية ،وعراقتها المعرفية من خلال مد الجسور والروابط بينهما ،وبما يؤكد ان علم البلاغة الذي وضع اسسه القدماء لم يكن عاجزاً عن مواكبة التطور اللغوي الذي ينشده الباحثون المحدثون.

٢. جعل البلاغة العربية المهاد التاريخي الذي تنطلق منه كل الدعوات الحديثة التي تسعى الى دراسة البلاغة دراسة اسلوبية كونها (البلاغة) الفن الخطابي الجيد الذي يسعى الى جمالية النص الادبي .

٣. توسيع الدلالة في مجريات التراكيب اللغوية لتكوين للصورة البلاغية وذلك من خلال دراسة النص الشعري دراسة تحليلية بعيداً عن القاعدة البلاغية حتى تتداخل انساق التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من اساليب علم البيان حسب صحة التأويل ،ومقتضيات السياق الدلالية .

تلك هي معالم التجديد التي يسعى اليها الدكتور ماهر مهدي هلال فيما قدم من ابحاث ، ولعل اهمها هو توحيد المسار المنهجي للدراسات الاسلوبية الحديثة مع البلاغة العربية رداً على من يتهم البلاغة بعدم مواكبة الدراسات حديثة او المعاصرة مما يؤكد اصالتها .

٧. قصي سالم علوان(*******) .

تبنى الدكتور قصي سالم علوان رؤية جديدة لاعادة النظر ببض المحسنات البديعية ، اذ ((لا تراها صبغاً او زينة، اي شيئاً عرضياً في الكلام ،بل تراها - اذا كانت طبيعية- من صميم النص، لما لها من وظيفة ودور فاعل)) (٦٥).

وهذه الرؤية تقوم في جوهرها على اساس ان البلاغة يمكن ان تتم دون البديع او المحسنات البديعية ،وذلك لتلخيص النص الادبي من التكلف الذي قد يلحق به من جراء مجيء هذه المحسنات بشكل مضاف الذي يفقدها دورها وفاعليتها ،وربما جعلها ((مقبحات)) وهذا ما حدث في كثير من النصوص القديمة التي شغف اصحابها بـ ((المحسنات البديعية)) بدءاً بردىء مسلم بن الوليد ،وابي تمام ، حتى نهوض الادب وتخليصه من الشغف بالبديع(٦٦) .

والدكتور قصي انما يسعى من وراء ذلك الى تحقيق الجمال في النص الادبي الذي هو غاية البلاغة العربية ، والذي لا يأتي الا من خلال التعبير والتصوير والتوصيل ،ومن اجل ذلك ذهب الى رفض التقسيم القديم او التقليدي لفنون البديع او المحسنات البديعية الى محسنات لفظية ، واخرى معنوية، فضلاً عن رفضه لتسميتها بالمحسنات لذلك فالطباق ،والمراجعة والتجريد والعنوان والتلميح، وغيرها من الفنون الاخرى ،لم تأت تحسيناً بديعياً كما اريد لها او كما توهم القدماء بل هي جزء من اسلوب يعمد اليه الاديب تعبيراً عن وضع نفسي خاص ،او مطابقة لمقتضى حال معين.

ولديه على ذلك امثلة كثيرة ،منها هذا الطباق في قول دعبل المشهور :

لا تعجبي يا سَلْمُ من رَجلٍ　　ضَحكِ المشيبُ برأسهِ فَبكى

يقول[٦٧]: ((انظر الى الضحك والبكاء ،كيف يتحولان الى طاقة تعبيرية فاعلة على ان يقول : هر المشيب او كثر ،او غيرهما ،ولكنه قال : ضحك . والمشيب بداية الطريق نحو الفناء ، بداية هدم الحياة التي دعت الشاعر الى البكاء)) ثم يقول ((ألهدم والفناء والعبث وعدم التعطف في طريق الفناء والتلاشي ،تجعل المشيب طرفاً شامتاً حتى الضحك :

ضَحكِ المشيبُ برأسهِ فَبكى)).

ويتساءل :((أتراه الصبغ او اتحسين هو الذي جاء بالطباق هنا))؟ .

((أترى الشاعر قادراً على التعبير عما يريده بغير هذا الاسلوب)) .

اذن نحن امام دعوة جديدة لاعادة النظر في اهم فنون البديع تداولاً في النص الادبي ، وتوظيفها توظيفاً جديداً يخدم النص نفسه ،بعيداً عن جعلها مظهراً من مظاهر التكلف الذي يفسد النص ،بل يجب ان نجعلها وسيلة مهمة من وسائل التعبير المناسب ، اذ ((ليس التعبير والجمال مفهومين اثنين ، فما هما الامفهوم واحد يمكن ان ندعوه باحد اللفظين على السواء)) [٦٨].

اصول هذه المعالم :

كانت البلاغة العربية قبل ان يسيطر عليها منهج السكاكي حرة طليقة يغلب عليها الطابع الادبي ويلف مباحثها روح يعتمد اولاً على الذوق والحس والادراك ،وكان للباحثين الاوائل من امثال : (ابن المعتز ،وابي هلال العسكري، وعبد القاهر الجرجاني ،وابن الاثير) اصالتهم في التأليف ، وكانت لهم مناهجهم الخاصة في البحث .. ولكن مناهج البحث في البلاغة لم تبق مختلفة باختلاف هؤلاء المؤلفين قد اتجهت كلها باتجاه واحد في اواخر القرن السادس الهجري ولاسيما على يدي (السكاكي) في كتابه :(مفتاح العلوم) حتى سيطر هذا الكتاب على مجالس العلم وتدريس[٦٩] .

ولعل عبد القاهر الجرجاني يقف في طليعة علماء البلاغة العربية الذين وضعوا اللبنة الاولى في اساس البلاغة العربية في موضعها الصحيح في :(نظرية النظم) ،حتى بدأ اثره واضحاً فيمن جاء بعده من البلاغيين ولاسيما (السكاكي)، والى ذلك اشار الدكتور احمد مطلوب بقوله : ((... ولم نعثر في تاريخ البلاغة على علماء اختصوا بهذا العلم (علم المعاني) وبحثوا فيه كما فعل السكاكي في (مفتاح العلوم) الا ما نلاحظه في وقوف عبد القاهر الجرجاني على (معاني النحو) في كتابه :(دلائل الاعجاز) ،والبيان في كتابه (اسرار البلاغة)، ولكن هذا الوقوف لا يعني انه ميز بينهما))[٧٠] ثم يقول : ((.. ولاننا لم نستطع ان نبين مفهوم المعاني عند السكاكي مع ما جاء في (الكشاف و (نهاية الايجاز) ،نقرر ان (السكاكي) اول من قسم البلاغة الى : معان وبينا ومحسنات ، وحدد موضوعات ، ارسى قواعدها ، وانه اول من اطلق على الموضوعات التي تبحث في الصورة والخيال بالتشبيه او

المجاز بانواعه والكتابة – مصطلح (البيان) وانه اول من سمى غير هذه البحوث محسنات ولم يسمها بديعاً)) (٧١) .

ومن هنا يمكن لنا ان نميز مرحلتين في تاريخ البحث البلاغي عند العرب ، كانتا تشكلان الاصول الاولى التي قام عليها تجديد البلاغة العربية، المرحلة الاولى،مرحلة:((عبد القاهر الجرجاني)) ومن جاء بعدها من البلاغيين الذين اشرنا اليهم قبل قليل ، والمرحلة الثانية : مرحلة ((السكاكي والقزويني)) واتباعهما .

وما دعا اليه الباحثون العرب المحدثون – ومنهم الباحثون العراقيون الذين هم موضوع هذا البحث – ليس الا عودة الى دراسة البلاغة العربية في مراحلها الاولى ،ولاسيما عند عبد القاهر الجرجاني في نظرية (النظم) باعتباره صاحب اللبنة الاولى في صرح البلاغة العربية .

ويمكن للباحث ان يلحظ التشابه واضحاً بين ما كتبه عبد القاهر الجرجاني في نظريته ، وبين ما دعا اليه الباحثون المعاصرون ، وقد مر بنا في صدر هذا البحث ،ان الشيخ امين الخولي وغيره يرون ان التقسيم الثلاثي القديم للبلاغة الى:(المعاني والبيان والبديع) لا فائدة فيه ،لذا دعا الى دراسة البلاغة دراسة جديدة تقوم على تقسيم ما اسماه بـ ((فن القول)) الى (المبادئ ، والمقدمات) ،حيث يتم تقسيم البحث البلاغي الى : البحث في الكلمة كعنصر لغوي قائم بذاته له اثر في التعبير ،والبحث في الجملة وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير وحذف وذكر ايجاز واطناب ،ثم البحث في الفقرة وما فيها من وصل وفصل ،وما تعبر من صورة فنية ،ثم البحث في صورة التعبير كالتشبيه والكناية والتورية ولم يغفل – بعد ذلك – اهمية البحث في القطعة الادبية من خلال ايضاح وشائج العمل الادبي ولاسيما في العلاقة بين الالفاظ والمعاني .

اما ما دعا اليه الباحثون العراقيون المعاصرون فلا يكاد يخرج عما دعا اليه ،امين الخولي ، واحمد الشايب ،وعبد الله العلايلي وغيرهم ان لم يكن صدى لارائهم وافكارهم ،وجميع هؤلاء الباحثين ((عراقيين وعرب)) لا يخرجون في هذا المجال عن دائرة (الجرجاني) في نظرية (النظم).

ولسنا نريد – في هذا الموضوع – ان نعيد الى الاذهان ما كتبه (الجرجاني) في نظريته هذه اذ اشار جميع الباحثين المحدثين والمعاصرين الذين كتبوا عنه او عن نظريته واثرها او اصالتها في البحث البلاغي عند العرب ولكن من المفيد ان نذكر هنا ان (الجرجاني) كان سباقاً الى دراسة البلاغة العربية دراسة يمكن ان تكون نواة ما يسميه الباحثون المحدثون والمعاصرون بـ (الدعوة الى التجديد) .

فهو اي (الجرجاني) ((جعل من (النظم) نظرية بلاغية ونقدية متكاملة الاركان ،ومنهجاً بلاغياً في تناول النص الادبي وتقويمه واطاراً عاماً لقواعد بلاغية تفصيلية تقدم للدارس النص الادبي ادوات رائعة لتذوق هذا النص ومعالجته)) (٧٢).

والامثلة والشواهد عند الجرجاني التي تدل على دراسة النص الادبي دراسة متكاملة لا جزئية كثيرة نبحث اولاً عن اسرار جماله الفني عن طريق تحليل بنائه اللغوي للوقوف على مافيه من جمال او روعة او فساد ،وهو بذلك لا يقيم شأناً للاقسام او الفروع او المصطلحات التي انشغل بها (السكاكي والقزويني) وانما شغل نفسه بسبيل استخلاص القيم الفنية عن طريق تحليل النص الادبي .

ودعاة التجديد في العصر الحديث يبحثون عن اسرار الجمال الادبي الذي يأتي من جراء النمط العالي من الكلام تلك هي الاسرار التي كان الجرجاني يفتش عنها في (نظرية النظم) ،والنظم عنده يعني ((ان تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه واصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها او تحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها)) (٧٣). ويقول((ولانظم في الكلام ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض وبينا بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك)) (٧٤).

ان الاسس التي اطال في شرحها عبد القاهر الجرجاني ببيان اسرار تكوين الجملة البليغة تعود كلها الى (النظم) ومن ذلك – على سبيل المثال – ماتحدث به عن ابيات البحتري :

بلونا ضرائب من قد نرى فما ان رأينا لفتح ضريبا

هو المرء ابدت له الحادثا ت عزماً وشيكاً ورأياً صليباً

تنقل في خلقي سؤدداً سماحاً مرجى وبأساً مهيباً

فكالسيف ان جئته صارخاً وكالبحر ان جئته مستثيباً(٧٥).

يقول الجرجاني معلقاً على بلاغة هذه الابيات وعذوبتها وموقعها في نفس المتلقي :((فاذا رايتها قد راقتك وكثرت عندك ،ووجدت لها اهتزاز في نفسك ،فعد فانظر في السبب ،واستقص في النظر،فانك تعلم ان ليس الا انه قدم واخر او عرف ونكر ،وحذف واضمر ،واعاد وكرر ،وتوخى على الجملة وجهاً من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فاصاب في ذلك ثم لطف موضوع صوابه ، واتى مأتي يوجب الفضيلة)) (٧٦).

وواضح ان الجرجاني في هذا المثال ،وامثلة اخرى كثيرة يسعى الى النمط العالي من الكلام المؤثر الذي يستحق اسم البلاغة ،فيدخل في الاذن بلا اذن(٧٧).

والحسن الذي ينشده بعد توخي معاني النحو هو الذي تواصفه ارباب البلاغة واعمدا لفصاحة بالحسن ،وتشاهدوا له بالفضل ،ثم جعلوه كذلك من اجل النظم خصوصاً دون غيره مما يستحسن له الشعر او غير الشعر من معنى لطيف او حكمة او ادب او استعارة او تجنيس او غير ذلك(٧٨).

ومزايا ذلك النظم عنده يأتي بحسب المعنى المراد او الغرض المقصود ، ولعل ذلك لا يتم لديه حتى تستوفي القطعة الادبية ، ويأتي على عدة ابيات منها، حيث يقول :((واعلم ان من الكلام ما انت ترى المزية في نظمه والحسن كالاجزاء من الصبغ تتلاحق وينضم بعضها الى بعض حتى تكثر في العين ،فانت لذلك لا تكبر شأن صاحبة ه ولا تقضي له بالحدق والاستاذية ، وسعة الذرع وشدة المنة حتى تستوفي القطعة وتأتي علىعدة ابيات)) (٧٩) .

وفيما تقدم دلالة على ان ما دعا اليه الجرجاني في نظرية النظم في كتابه ((دلائل الاعجاز)) هو الاسس الصحيحة لدراسة البلاغة العربية دراسة تقوم على تقويم النص الادبي كوحدة الاجزاء بعيداً عن القاوعد البلاغية وتقسيماتها وفروعها التي دعا اليها البلاغيون المتأخرون ، والذين رسموا حدود البلاغة العربية فظلت كما هي في وقتنا الحاضر ،ولم يجرؤا احد من الباحثين المعاصرين او المحدثين ان يغير ما كتبه ((السكاكي او القزويني واتباعهما))وان دعا الى دراسة البلاغة دراسة جديدة كما مر بنا في هذا البحث .

الهوامش :

١. ينظر مقال: (آراء في البلاغة العربية)، د. احمد مطلوب، مجلة الكتاب، السنة ١٩٦٢، ص٣٥ .
٢. ينظر :(اتجاهات البلاغة العربية) ، د. احمد مطلوب ، مجلة كلية الاداب ، جامعة بغداد ، السنة ١٩٦٢ ، ع ٥ ، ص١٧٩ –١٨٠ .
٣. ينظر : فصول في البلاغة العربية . محمد بركات ، ص١٩٣ .
٤. ينظر : المدخل الى دراسة البلاغة العربية . د. فتحي عبد القادر فريد ،ص٥ –٦ .
٥. ينظر : مقدمة لدرس لغة العرب . عبد الله العلايلي ، ص٤٣ –٤٥ .
٦. ينظر تفاصيل ذلك في: المدخل الى دراسة البلاغة العربية. د. فتحي عبد القادر فريد ، ص٧ –٢٨ .
٧. اطروحة دكتوراه على الآلة الكاتبة بعنوان:((حركة تجديد البلاغة العربية في العصر الحديث))، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٠ .

٨. ينظر تفصيل ذلك في : حركة تجديد البلاغة العربية في العصر احديث ، ص١١٥ وما بعدها .

٩. ينظر تفصيل ذلك في : البلاغة بين التقليد والتجديد ، ص٥٧ وما بعدها .

١٠. البيان في وجوه البيان . ابن ذهب الكاتب ، ص٦٠ .

(*) جميل سعيد : احد اعلام الادب العربي المعاصر في العراق ، ولد عام ١٩٣٦ وتوفي في مطلع تسعينات القرن الماضي(١٩٩٠). زود المكتبة العربية بـ (اربع عشرة) كتاباً من اشهرها (تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية الى ابي نؤاس) و (الزهاوي وثورته في الجحيم) و (دروس في البلاغة وتطورها) وغيرها . انتخب عضواً في المجمع العلمي العراقي في العام ١٩٦٥م، ثم في العام ١٩٧٩ ،وعضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق ، وعضواً مؤازراً في مجمع اللغة العربية الاردني في العام ١٩٨٠ ، ينظر جميل سعيد . حياته وآثاره ،رسالة ماجستير على الالة الكاتبة ،الجامعة المستنصرية ،عبيد نصيف جاسم الكبيسي، بغداد ،١٩٩٩ .

١١. ينظر : دروس في البلاغة وتطورها ، ص١٤٣ وما بعدها .

١٢. ينظر : دروس في البلاغة وتطورها ، ص٩٦ – ٩٨ .

١٣. المصدر نفسه ، ص١١٢ .

١٤. ينظر مناهج البحث في اللغة ، ص٥٩ .

١٥. ينظر : موسيقى الشعر ، ص٨ –٩ .

(**) احمد مطلوب : باحث اكاديمي معاصر شغل عدة مناصب منها : وزارة المعارف في عهد الرئيس عبد السلام عارف في العام ١٩٦٣ ، وامانة المجمع العلمي في عقد التسعينات من القرن الماضي . ألف اكثر من اربعين كتاباً في البلاغة والنقد .

١٦. نشرت في مجلة الكتاب ، العدد الاول ، بغداد ، السنة ١٩٦٢ .

١٧. نشرت في مجلة كلية الاداب ،جامعة بغداد ، السنة ١٩٦٢ .

١٨. ينظر : ص٣٩٧ – ٤٢٤ .

١٩. ينظر : ص٢٤ – ٢٥ ، ص٩٥ – ١٣٧ .

٢٠. ينظر مقالته :(آراء في البلاغة العربية) ،مجلة الكتاب، لسنة ١٩٦٢، وينظر .ايضاً مقالته : (اتجاهات البلاغة العربية)، مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد، لسنة ١٩٦٢ ، ص١٨٧–١٨٩ .

٢١. ينظر تفاصيل ذلك في : (مناهج بلاغية) ، ص٣٩٧ –٤٠٥ .

٢٢. ينظر : المصدر نفسه ، ص٤١٠ .